رسائل حاج

٤ ـ من ربوع الغـــرب إلى بلاد العرب

للمستشرق المجرى

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

أستاذ التاريخ بجامعة بودابست

تتمـــــة

وقف جلالة الملك ابن السعود فوق ذروة « جبل الرحمة » كرمز خالد لعبقرية الأمة العربية ، يذرع الفضاء بعين نسر جبار ، ويشرف على راحة الحجاج الضاربين خيامهم في السهول المجاورة . لكم كان منظره فاتناً خلاباً ، والشمس تكنفه وتشرق عليه ، بينما يلتف حوله الحرس الوهابي بملابسهم المزركشة وخناجرهم التي تلمع مقابضها في وهج الظهيرة

وقبيل الفسق تحرك الركاب الملكي شطر « المزدلفة » فظهر في الجو غبار كثيف امتزج بصيحات الوهابيين الذين كانوا يهتفون : « نحن أنصارُ التوحيد ، إخوة من أطاع الله » وليس لأي كاتب مهما بلغت عبقريته أن يصف هذا المنظر وصفا شافيا ، ومن لي بالفصاحة والبيان لأصوره على حقيقته ؟

وعند وصولنا الى « مني » ، بلغ مسامعنا نبأ محاولة اغتيال الملك ، فان ابن السعود ما كاد ينتهي من طوافه للمرة الثالثة حتى داهمه أربعة من اليمنيين وهم يصيحون بأعلى أصواتهم : الله أكبر ! الله أكبر ! محاولين أن يطعنوه بخناجرهم . فان لليمنيين مهارة وحذقا خاصا في استعمال الخناجر ، لكنهم لم يصيبوا سوى ولي العهد وهو يهم بانقاذ أبيه . ثم حمل الجنود على الجناة وحاولوا أن ينزعوا سلاحهم . ولما لم يفلحوا اضطروا إلى رميهم بالرصاص ، وأريقت دماؤهم فوق ثرى هذه الأرض المقدسة . وكان الملك الذي طالما خاض غمار حروب ومعارك حتى لم يخل جسمه من شبر واحد من آثار الجروح ، هادئا ساكنا فلم تبدُ على وجهه أمارات الجزع ، بل قصد لساعته بئر زم فتوضأ ، ثم عاد الى اتمام طوافه بالكعبة

وكان للحادث أثره المؤلم في نفوس الحجاج ، فاستنكر بشاعة الاغتيال ، وتوغل بعض القتلة في الصفوف تخشى يحدث فرارهم ذعرا في القلوب . ولقد أحسن الملك صنعا بهو السريعة الى منى ليزيل ما علق بنفوس الحجاج من الرعب فانه ما كاد يستقر في سرادقه حتى هرعت اليه جموع الحج ووفود البلاد لتقدم تهنئتها بنجاته من يد الآثمين . سنحت الفرصة لأن أقف وجهاً لوجه أمام العامل العربي الذي يحكم بلاده بالعدل والشريعة ، ويسودها بالعطف والمحبة ؛ كان ابن السعود يجلس في سرادقه تحيط به ثلة من الحرس النجدي وهم من صفوة الرجال الأشداء ، وكانت ملابسهم المزركشة تخطف بسناها الأبصار ، يتوج رؤوسهم العقال البدوي ، وتنث من تحته ضفائر الشعر الكثيف الأسود حتى تصل إلى صدورهم بينما أقداح القهوة العربية وأكواب اللبمون الثلج تطوف على الوفو بين حين وآخر . وعند ما غشيت مجلس الملك كان الخطب الماثل بين يديه قد انتهى من خطابته ، فلما التقى طرف الملك بطرفي أومأ إليّ أن أتقدم ، فجمعت شجاعتي وأنا في نشوة روحية عميقة ، ورفعت يدي إلى رأسي إجلالا واحتراماً ثم تقدمت .

لقد قابلت في شبابي وأنا في استامبول ، السلطان عبد الحميد ورافقت السلطان محي الدين في إحدى سياحاته ، وزرت السلطان رشاد ، وتحدثت إلى كثير من الرؤوس المتوجة في أوربا ، لكنني لم أشعر مطلقاً أني وقفت وجها لوجه أمام التاريخ إلا في تلك المقابلة ، لا سيما عند ما رفعت عيني إلى وجه ابن السعود ، ولمحت في ثناياه دلائل الحزم والقوة والشفقة والحنان والمهابة والجلال ولقد لاحظت أن بطرف عينه اليمنى حولاً ، بينما العين الأخرى قوية سليمة ، والمعروف عن الملك أنه شجاع مقدام ، تضرب القبائل بشجاعته المثل ، فمنذ ما كان في الحادية عشرة من عمره ، قاتل في إحدى المعارك خصماً له فقضى عليه بضربة من حسامه ؛ وهو رجل شديد الايمان بالله ، ولقد كان إيمانه من أقوى الأسباب في تأسيسه المملكة السعودية واحياء مجد الجزيرة العربية

وما كدت أقف أمام الملك حتى خاطبته بصوت جهوري في

ل معانى الاخلاص : السلام على أمير المؤمنين ، إنني أحمد الله
نجانك من يد ذلك القاتل الأثيم عدو الدين

ومدّ إليّ ابن سعود يده فصافحتها ثم طلب إلى أن أزوره فى
ره ؛ وبعد أن شهدت حفلة الاستعراض العسكرية التى أقيمت
وادى الشهداء » ورأيت ضروباً من الفروسية العربية ، تلك
روسية التى خلقت من الحب أدباً عالياً ومن المرأة صنماً معبوداً
جهت إلى القصر الملكى بناحية « المعلى » بالضواحى ، وهو
صر عظيم شامخ البنيان ، يشبه الحصون العسكرية ، ويشتمل
ى عدد كبير من الغرف المتسعة الأرجاء والردهات والابهاء
ات العمد

وجلست بقاعة الاستقبال ، فى انتظار التشرف بالمقابلة ،
لم يرنى أن التقيت بكثير من أعيان العرب ، الذين يأتون للمثول
بين يدى الملك بملابسهم الفخمة ، فيحادثهم كانسان يستشير
خوته ، ويرسم معهم كل ما يتعلق بسياسة الدولة وتدبير وسائل
رفاهية والراحة للحجاج . ولقد راعتنى البساطة التى ألفيتها
متمثلة فى الملك والشعب معاً ، فالرسميات المعقدة التى تتبع فى بلاط
ملوك أوربا لا وجود لها فى هذا البلاط العميق الديموقراطية .
والواقع أن ابن السعود هو عاهل الجزيرة العربية بلا منازع ، ولم
يؤل الملك اليه عن طريق الوراثة ، بل آل اليه عن جدارة
واستحقاق

وطفقت أستوهب الدقائق إلى أن يحل دورى فأتشرف
بالمثول بين يدى الملك ؛ وكنت فى خلال فترة الانتظار جالساً
فى مكتب سعادة فؤاد بك حمزة وزير الخارجية ، الذى ذكر لى
أنى أول حاج قدم إلى مكة من بلاد الهند ؛ وما كاد يحل دورى
حتى تقدمنى فؤاد بك حمزة وغشينا مجلس الملك ، وبعد أن
صافحته أومأ إلى أن أجلس بجواره ، وقدمت إلينا القهوة ، فرأيته
يرشفها بشغف ولذة . ثم بدأ الملك يتحدث إلى فقال : « لقد
قدمت من نجد إلى الحجاز وجبت البلاد من الشرق إلى الغرب
لزيارة بيت الله وتفقد حالة الحجاج . وغاية ما أرمى اليه أن أؤلف
بين قلوب رجالى متوسلا إلى الله أن يلهمنى وإياهم الصواب فى
أعمالنا . لقد عنيت عناية خاصة باقامة الشرائع المحمدية ، ونشرت
الأمن والسلام فى أنحاء الجزيرة العربية ، وفى وسعك الآن أن
تتجول فى أقصى بقعة من بقاع الجزيرة دون خوف ولا وجل .
وستترى عما قريب أننى سأعيد إلى هذه البلاد عظمتها القديمة
حتى تصبح موئل الاسلام كما كانت أيام سيد المرسلين »

إن هذا العاهل العربى العظيم يلمس تماماً مواطن الضعف
فى كل ركن من أركان بلاده ويعمل على اصلاحه وتقويمه
ما استطاع إليه سبيلا ؛ فالسلام مع الرقى والتقدم هما الأمران
اللذان يعنى بهما عنايته بطعامه وشرابه ، واقامة حدود الله مع
المحافظة على استقلال الجزيرة هما الغايتان اللتان يسترشد بهما فى
تأدية واجبه ، وهو لعمرى الطريق السوى الذى يجب أن يسير
فيه . وملك هذه صفاته وأعماله جدير حقاً بأن يخلد التاريخ ذكره
فى ثبت الوجود

وبعد أن انتهيت من زيارتى استأذنته فى الانصراف فقام
من مجلسه منتصباً وبسط إلى إحدى يديه الغليظتين وظل قابضاً
على يدى برهة وهو يرمقنى بعينه المتسعة ، وكانت ملامحه تدعو
إلى الهيبة والاحترام إلى حد ألفيت نفسى عاجزاً عن أن أرفع إليه
بصرى ، ثم مالبثت أن هويت بفمى على راحته الكبرى إكبار وإجلال

ولما أزفت ساعة الرحيل ودعت أصدقائى من سادة العرب
وكبار العلماء كالأستاذ محمد شطا شيخ قضاة مكة ، ورئيس الشرطة ،
وبعض الأطباء النابهين ، ووصلت إلى جدة حيث قضيت أياماً
فى ضيافة الشيخ محمد على وهو رجل علامة يحذق لغات شتى ، وقد
تجول فى أنحاء أوربا ، ويعرف الشىء الكثير من عادات الشرق
والغرب

وأقامت الباخرة فوقفت فى مقدمها واجماً ساكتاً تتناهبنى
شتى المواطف ، وأما أودع هذه الأراضى المقدسة التى ربما أراها
للمرة الأخيرة . وكلما بعدت بنا الباخرة اغرورقت عيناى
بالدموع ، فقد خلفت فى تلك الديار صداقة جديدة تكاد لمذوبتها
تشبه الحب ، وذكرى عزيزة هى ثمرة عقيدتى فى الاسلام واليوم
الآخر . فما أعظم الفرق بين مدنية أصدقائى العرب ، إخوانى فى الله ،
الذين تشيع فى قلوبهم فكرة الاتصال بالواحد القهار فيصدفون
عن الماديات ، وبين مدنية المغرورين الذين يتهالكون فرقاً وراء
قضبان المادة وينقمون غلتهم فى شهوة المال !

عبد الكريم عبد القادر